هذه عينة للقراءة مقدمة من "كليت-كوتا". تجدون هذا الكتاب وبرنامج النشر الكامل لديناعلى الرابط التالي

/www.klett-cotta.de/home

إيريس ڤولف

ضبابية العالم

ترجمة : هبة شريف

إلى أندرياس

رأيت
الحجر يذوب
والحب يختفي

هكذا صاح العصفور
فوق الشجرة

ونقول نحن:
إنه يغني

ريشارد ڤاجنر

زاپادا

أترك لي الطفل.

لم تفكر "فلورنتين" في هذه الجملة، لم تنطق بها، تركت نفسها لها لتسيطر عليها. كُتبت عليها، صاحبتها، أولًا في العربة ذات الحصانين، ثم في القطار إلى أراد[i]، وهناك استقلت من محطة القطار سيارة أجرة إلى المستشفى. أترك لي الطفل، من فضلك. رنت الجملة وسط الثلج، طارت مثل رقائق الثلج على جانب الطريق، تدحرجت معها على القضبان، في رتابة وبشكل متقطع. دوت صفارة رفيعة عالية كأنها تحذير. وفي التاكسي تشابكت الجملة وتعقدت وأصبحت صلبة، علقت في حلقها، في معدتها، في قبضة يديها، في فمها. أترك، من فضلك.

كان الثلج يسقط منذ أسبوع، سقطت في البداية رقائق صغيرة بريئة، ولكنها جريئة، تناثرت فوق الفناء كأنما تتناثر فوق ظهر حيوان، غطت رقائق الثلج أسقف البيوت، ماعدا برج الكنيسة، فقد انزلقت من فوقه. كانت كل قطعة من رقائق الثلج مصممة بطريقة تسمح بأن يُصنع منها المزيد، لتُرسل بعد ذلك وتغطي كل شيء وتخفيه تحتها: القرى، الحقول، الهضاب التي تبدو عند الأفق، وفي النهاية الأفق نفسه. توقف "هانيس" عن جرف الثلج في الفناء، واكتفى بجرف الثلج من مدخل البيت إلى الشارع، ومن الشارع إلى البيت المجاور. كان يخرج ثلاث مرات يوميًا ليقوم بذلك متقبلًا أن يتراكم الثلج على جانبي الطريق ويصبح جبالًا تزداد ارتفاعًا. ووسط هذه الطرق المجوفة اصطحب "هانيس" "فلورنتين" في الصباح، خرج معها من الفناء إلى الشارع مرورًا بالكنيسة. عربة وحيدة كانت تقف عند الشارع الرئيسي، وعلى مقعد الحوذي رجل يرتدي معطفًا من الفرو وقبعة من الفرو أيضًا، كان غاطسًا في جلسته كأنه نائم. تبادل "هانيس" و"فلورنتين" نظرة. وأومأت "فلورنتين" برأسها. اعتدل الرجل في جلسته عندما اقتربا منه. صعد فوق صندوق العربة وفتح عددًا من البراميل الخشبية وأخذ يمتدح ما بداخلها. كان بداخل أحد البراميل أسماك رصت كلها في اتجاه واحد، بطونها فضية وظهورها بلون أسود مختلط بالرمادي، كانوا كأنهم سرب من الأسماك يسبح في البحر ومستعد في كل لحظة لتغيير اتجاهه. وفي برميل آخر كانت الأسماك على شكل نجوم، ذيلها في منتصف جسدها، ورأسها متجه للأسفل، العشرات من الرؤوس والخياشيم والعيون.

شرح "هانيس" الأمر وأعطى الرجل نقودًا، واشترى منه في النهاية سمكة أيضًا حتى يقنعه بالتحرك. سترقد السمكة في النهاية في صندوق القمامة، وستتوقف "فلورنتين" بعد هذه الرحلة عن أكل السمك المملح.

---

[i] مدينة بغرب رومانيا

ضرب الرجل الحصان بالسوط، سار "هانيس" بضعة خطوات خلف العربة كأنما أراد أن يتبعها. ظلت "فلورنتين" تنظر وراءها حتى منعطف الطريق، ثم لم تعد تراه، وبعد قليل اختفت القرية أيضًا. كان المتزلجون ينزلقون فوق الثلج، سمعت صوت صرير أطباق ودق جرس صغير بصوت عال ومتواصل، وعندما لمست بطنها تخيلت إنها سمعت صوتًا كصوت تكسر الزجاج إلى نصفين. كل منعطف في الطريق كان عودة للطريق السابق، وكل مجموعة أشجار كانت تكرارًا للمجموعة السابقة. لم تكن ثمة ألوان ولا معالم ثابتة، فقط انزلاق العربة وصوت الجرس العالي ورائحة السمك المملح. وفي الطريق الزراعي المفتوح، حيث لا أشجار أو بيوت توقف الريح. نظرت أمامها فرأت كيف انحرف المتزلجون عن الطريق. انقلبت البراميل والأسماك، بعثرتهم يد ضخمة فوق الثلج بلا مبالاة – نقش أسود مختلط بالرمادي في وسط البياض الممتد.

سكت الحوذي. لاحظت "فلورنتين" إنه يتأملها من جانب عينه وقد أدرك منذ فترة إنها تشبك يديها فوق بطنها وإنها تسند نفسها كلما مرا بالعربة فوق مناطق وعرة. وجه الحصان إلى منتصف الطريق وخفض من سرعة العربة في المنحنيات – لقد فهم الأمر. كانت عيناه بين المعطف والقبعة الفرو هما الشيء الوحيد الذي استطاعت رؤيته. لم يكن من الممكن تحديد عمره أو تحديد إذا كان وجهه جميلًا أو إذا كان وجهًا يحمل شيئًا من خشونة يديه. شعرت "فلورنتين" نحوه بالامتنان، لقد كان يعرف المنطقة جيدًا واستطاع أن يجد طريقه رغم قلة العلامات الإرشادية مستعينًا بالشجيرات الصغيرة والأشجار الكبيرة التي لم تكن تعني شيئًا لها. كان يعرف الشجرة التي ينبغي أن ينعطف عندها، ويتجنب عوائق على الطريق لم تلحظها هي إلا متأخرًا، يبدو إنه يقود عربته على هذه الطرق منذ سنوات، صيفًا وشتاءً، يحمل سمكًا مملحًا يؤمّن له ولأسرته مصاريف الحياة.

كان أبوها سيقول، أكان لابد أن تختاري هذا الروماني من بين كل الناس. ولكن في هذه اللحظة كان ذلك الرجل أقرب إليها من أي إنسان آخر.

كان الثلج يشع ضوءًا ساطعًا جعل "فلورنتين" تشعر مع مرور الوقت بالفزع، هذا الضوء كان يجعلها في الأيام الأخيرة تتنقل في البيت قلقة من حجرة إلى أخرى– لم تكن حجرات البيت مألوفة لها بعد. بدا الأمر لها وكأن الحجرات تتأملهما، كأنها لا تغفل أي حركة بسيطة يقوما بها أو أي كلمة يهمسا بها، كأنما رسم البيت منذ وقت طويل صورة لهما: امرأة ذات بشرة ينتشر عليها النمش، نحيفة، نحيلة تقريبًا، ترتدي دائمًا سراويلًا واسعة وفانلات مطرزة، ورجل ذو لحية داكنة كثيفة وشعر متوسط الطول، يلعب كرة القدم ويعزف الجيتار، أرسلوه إلى الحدود الغربية للبلاد ليبدأ أول منصب كهنوتي له. زوجان في منتصف العشرينيات، يقضيان الأمسيات في لعب الورق. زوجان كانا يتفحصان البيت بغرفه العديدة وحديقته وتكعيبة العنب وأشجار السفرجل والخوخ والكمثرى، وكان أهل القرية يتفحصانهما أيضًا. نشأت "فلورنتين" في المدينة فلم تعرف ما الذي ستفرضه عليها الحياة في الريف، ما الذي ستتطلبه منها – لكنها أرادت أن تبذل كل ما في وسعها لإنجاح هذه التجربة.

في عصر اليوم السابق تنقل الشباب الذين يمثلون في مسرحية أعياد الميلاد من بيت إلى. آخر. حدث كل شيء بلا صوت، فمنذ أن سقط الثلج لم تعد أبواب الأفنية تُفتح أو تُقفل، لا أصوات أبواب تُغلق، لا أصوات أطفال تصرخ، لا صياح عبر الأفنية. حبس الثلج الأصوات داخل البيوت، حتى أصوات نباح الكلاب ضاعت وسط الثلج، هذا النباح الذي كان يبدأ عدة مرات كل يوم وكل ليلة ويمتد من كلب إلى آخر حتى يغطي العواء القرية بأكملها. كان النباح يتوقف بين لحظة وأخرى كاشفًا عن سكون أعمق من السكون الذي كان قبله. ولو أرادت "فلورنتين" أن تجد وصفًا لطبيعة حياتها الجديدة، لن تجد أفضل من ذلك السكون.

تتبعت "فلورنتين" مسار الشباب من وراء نافذة المطبخ. لف ستة منهم أنفسهم في ملابس بيضاء، أشكال لا يمكن تحديدها وسط جبال الثلج إلا بصعوبة: يوسف، مريم العذراء في زينة العروس، اثنان من الملائكة يحمل كل منهما صولجانًا وسيفًا، ثور وحمار بوجوه غاضبة وقرون طويلة. اللحظة التي نادى فيها الملاك الثاني على العذراء مريم لتدخل بيت القس، كانت هي اللحظة التي شعرت "فلورنتين" فيها بشيء ساخن بين ساقيها. دخلت الحمام وخلعت بنطلونها، كانت الدماء تغطي فخذها وتتساقط فوق البلاط. أعطتها القابلة دواء لوقف الدماء. ولكن عندما عاد النزيف من جديد في الصباح، عقدت "فلورنتين" عزمها سريعًا وانطلقت. أرادت أن تذهب إلى المستشفى بالرغم من إن حركة القطارات إلى القرية قد توقفت بسبب الثلوج.

وفي طريقها إلى محطة القطار فكرت فيما سيقوله "هانيس" اليوم في قداس عيد الميلاد: محصن ذلك الشخص الذي لا يريد النصر ويخضع لمشيئة الرب. لم تكن "فلورنتين" في ذلك اليوم محصنة. شبكت ذراعيها فوق بطنها، وضمت فخذيها وأغمضت عينيها. لكنها لم تر ظلامًا، وإنما رأت لونًا أبيض لا يختفي.

انتظر بائع السمك حتى جاء القطار. ولم تدرك إلا فيما بعد إنها لم تتبادل معه كلمة واحدة طوال الطريق. عندما بدأ القطار في التحرك مسحت بيدها لوح الزجاج المغطى بالضباب لتنظر إلى الخارج. كان يقف على رصيف المحطة، يداه داخل جيوب المعطف، ووجهه مختف بين القبعة وياقة المعطف. حيته بهزة من رأسها وتخيلت إنه أومأ لها بدوره، ربما لم يفعل سوى أن رفع يده: لم تعد تتذكر ما حدث بمجرد أن غادر القطار المحطة.

فكرت إن حتى الإنسان الذي كانت لا ترى غيره في هذا العالم، يمكن أن يختفي كأنما لم يكن موجودًا أبدًا.

وقف الطبيب عند نهاية السرير وسمعت "فلورنتين" ما قاله بصعوبة وسط شكاوى وتوسل وبكاء النساء الأخريات.

هل سأل فعلًا ماذا تناولت؟

كان للطبيب رأس أصلع ويدان قويتان لم يخرجهما من جيب معطفه إلا لينظف أنفه. لم يفحصها أحد.

«لا شيء، لم أتناول شيئًا. أنا هنا حتى تنقذ الطفل.»

حاولت "فلورنتين" الوقوف. أعادتها إحدى الممرضات الواقفات إلى جانب سريرها من جديد إلى وضع الرقاد. ثم قرر الطبيب أخيرًا أن يتحسس بطنها. وضع رأسه فوق بطنها. شعرت بأذنه الكبيرة الباردة. قيل شيء ما، ودُونت ملاحظة ما، لم تستطع أن تفهم ما قيل. ذهب الطبيب دون أن يلتفت إلى النساء الأخريات. أعطتها الممرضة قرصًا أزرق. تأملت "فلورنتين" القرص متشككة ولكنها ابتلعته في النهاية، ثم أخيرًا، الظلام.

عندما استيقظت كان الليل يطل من خلف النوافذ. وضعت يديها فوق بطنها كما كانت تفعل دائمًا في الستة شهور الأخيرة، بسطت يديها وباعدت ما بين أصابعها. لقد رأت الطفل، مهما كان وقع ذلك غريبًا، استطاعت أن تشعر بمعالمه. شعرت بالاطمئنان بعدما قامت بقياس الطفل داخلها. وضعت قدميها فوق الأرض ونهضت، لم تجد حذائها، فسارت على مضض حافية القدمين. في السرير المجاور رقدت فتاة لم تتخط الخامسة عشر من عمرها، من الأقلية الألمانية في رومانيا كما يبدو من قميص نومها. كانت تثبت عينيها على سقف الحجرة ولم تكن تتحرك. وإلى جانبها امرأة رومانية، تغمغم بشيء بدا كأنه قصيدة، ربما كانت صلاة. امرأة أخرى، كانت في واقع الأمر في سن أكبر من سن الحمل، جلست على حافة السرير وأمسكت ببطنها وأخذت تؤرجح نفسها إلى الأمام وإلى الخلف. بكت إحداهن، وتبادلت نساء أخريات الحديث. ثم شعرت بوخزة دافئة ومحذرة في عنقها من الخلف. كانت ثمة امرأة تنظر من النافذة وقد ثبتت نظرها عليها كأنما أرادت أن تقول لها: توقفي عن التحديق في الأخريات. شعرت "فلورنتين" إن شيئًا ما داخلها تبلد. كان الهواء خانقًا. هدأت الأصوات المتشابكة، كانت تختفي ثم تعود من جديد. تصورت إنهم وضعوهن جميعًا في حجرة واحدة عن عمد حتى لا يضطر الأطباء إلى النظر إليهن كأفراد، وكان ذلك يسهل عليهم إبداء الرأي وإصدار الحكم من مكانهم عند نهاية الأسرة.

سارت في الممر ذي الأضواء الساطعة. لم تر أحدًا. وجدت أخيرًا ما تخيلت إنه الحمام. دخلت واستندت إلى الباب وأغمضت عينيها. ثم لاحظت الرائحة الكريهة. لم يكن ثمة مرحاض، فقط فتحتان في الأرض. لاحظت شيئًا ملقى فوق الأرض كأنما سكبه أحدهم من دلو بلا مبالاة، ثم أخذ يجرفه ناحية ثقب المرحاض. دار بها المكان. رأت الأذرع الصغيرة والأيدي المتناهية الصغر ملتصقة بالجسد، رأت الأعمدة الفقرية الملتوية، الرؤوس الشبيهة برؤوس الزواحف والجفون الرقيقة المغمضة، رأت الجلد الوردي، البقع الزرقاء، الدماء. انحنت "فلورنتين" في اللحظة المناسبة فوق الحوض وأفرغت ما في جوفها.

بإمكانك التخلص من حمل غير مرغوب فيه بالقفز من فوق المنضدة، أو بحمل شيء ثقيل أو يمكنك أن تطلبي من أحدهم أن يضربك في بطنك. وتنصح السيدات اللاتي تجرين عمليات الإجهاض للنساء بتناول الكثير من أعشاب الميرامية أو زهرة العطاس أو إكليل الجبل أو البقدونس أو الحبق أو حشيشة الملاك. وإذا لم يساعد كل ذلك، تُعطى المرأة جرعة مركزة من

سيانيد الهيدروجين أو تُستخدم إبرة تريكو. وتخاطر النساء اللاتي يلجأن إلى تلك الوسائل بأن يصبحن عقيمات إلى الأبد.

أو يمكن أن يحدث لهن ما حدث ل"نيكا".

تعرفت الاثنتان في مجلس البلدية حيث وقفتا مع الآخرين في طابور تنتظران الدخول. خمنت "نيكا" إن الوقوف في طوابير مقصود من الحكومة كتدريبات رياضية، وبهذا تعفى الحكومة نفسها من توفير الأنشطة الرياضية. أما الوقت الذي توفر بسبب غياب الأنشطة الرياضية فيمكن أن يقضونه في رأيها في تناول القهوة أو تناول كأس من الڤيشيناتا- أو الأفضل في تناول الاثنين.

كانت "نيكا" أول صديقة ل" فلورنتين" في القرية. كانتا تلتقيان كثيرًا في أيام الأسبوع لتناول القهوة أو لتناول مشروب الكرز الحامض. كانتا تلتقيان في أغلب الأحيان في مطبخ "نيكا"، حيث الضجيج الذي ينبعث من الراديو أو حيث يلعب أحد الأطفال، و دائمًا كانت ثمة كعكة تُخبز في الفرن أو يُطبخ حساء فوق الموقد. كان "هانيس" يعرف من رائحة "فلورنتين" أين كانت. رائحة هي خليط من روائح المطبخ والقهوة ودخان السجائر.

أول صورة تظهر أمام "فلورنتين" عندما تفكر في صديقتها كانت صورة "نيكا" وهي تمسك بالسيجارة بين أصابعها، وخيط الدخان المتصاعد في دوامات يتفرق بفعل حركات يديها التي تؤكد ما تقوله أو تعلق عليه أو تشكك فيه. ثم العينان الخضراوان الفاتحتان (بهما تعبير بين الترقب والغرور)، والسرعة التي تفهم بها الأمور، سخريتها ورغبتها في الضحك الذي يكشف في الوقت نفسه عن اكتئابها، اكتئاب ورثته عن العائلة، كما تقول "نيكا". ولدت "نيكا" في بوكوفينا[ii]، في إحدى القرى التي انتحر فيها حبها الأول وكان لا يزال في الثامنة عشرة من عمره. ونصحت أبناءها ألا يصبحوا شعراء أبدًا. الشعراء يموتون في شبابهم ويقولون ما يفكرون فيه، وهذا غير مسموح به، سواء هنا أم على الجانب الآخر من الغابة.

"فلورنتين" و"نيكا"، حملت كلتاهما في الصيف. لكن "نيكا" لم ترغب في طفل آخر، فحقنت نفسها بعقار يُعطى في الأصل للأبقار وماتت في خلال ثلاثة أيام تحت وطأة التشنجات. رفضت المستشفى علاجها، ففي جمهورية رومانيا الشعبية لا يوجد إجهاض.

سمح الطبيب ذو الأذن الباردة ل"فلورنتين" بالخروج في نهاية الأسبوع. كان النزيف قد توقف، ولم يكن ثمة شيء آخر يمكن أن يفعلوه لها. لاحظت من تصرفات الطبيب أنه ما زال يتهمها إنها تناولت شيئًا لإجهاض حملها، لكنه لم يقل شيئًا. كانت سعيدة إنهم سمحوا لها بالعودة إلى بيتها. سمحوا أن تخرج من الحجرة المكتظة، أن تنام في سريرها، أن تأخذ حمامًا، أن تكون مع "هانيس" – "هانيس" الذي حاول أن يزورها لكنهم لم يسمحوا له بالدخول، هذا ما سمعته "ماريانا" التي كانت تسمع كل

[ii] منطقة بين رومانيا وأوكرانيا.

شيء. كانت "فلورنتين" تذهب كثيرًا إلى سرير الغجرية، فيفتحان جزءًا من النافذة ويشاهدان الثلج وهو يتطاير في الشارع.

كانت "ماريانا" ترتدي روبًا منزليًا يصل حتى الأرض وتؤرجح ساقيها مثل شخص يجلس فوق سور. كانت تنتظر طفلها الرابع، وقد دخلت المستشفى منذ أسابيع. ظلت محتفظة بسريرها عند النافذة ولم يعطوه لإحدى النزيلات الجديدات. عرفت كيف تحصل على كمية أكبر من الطعام، وعرفت ما الذي كان عليها أن تفعله حتى لا يختفي حذائها المنزلي بعد تنظيفه، وأخبرت "فلورنتين" بأمر الحمام الموجود في الطابق الأسفل، الحمام الذي تستخدمه الممرضات.

وسألتها "فلورنتين": «كيف عرفتِ كل هذه الأمور؟»

«عرفت لأني لم أسأل.»

نصحتها "ماريانا" وهي تودعها: «عندما يأتي موعد ولادة ابنك، اكثري من صعود وهبوط السلالم. لا تتركي هذه الشياطين تقيدك في سريرك.»

لم تندهش "فلورنتين" كثيرًا عندما تحدثت الغجرية عن الطفل على إنه صبي. فقد قادتها قياساتها للطفل داخل بطنها إلى نفس النتيجة. جلست في القطار ووضعت يديها على بطنها، بسطت يديها وباعدت ما بين أصابعها وركزت على معالم جسد الصبي داخلها. بعد فترة لاحظت إنها لا تستقل القطار الصحيح. ترجلت من القطار في المحطة التالية ووجدت نفسها على رصيف محطة مهجورة. كان من المستحيل معرفة موعد قدوم القطار التالي. كانت محطات القطار في بانات[iii] مصممة بطريقة تجعلك تتخيل إنه لا ضرورة أبدًا للوصول إلى أي مكان. كانت السماء زرقاء بلون الماء، والغربان تدور في أقواس حول الحقل. كسرت "فلورنتين" رقاقات الثلج من فوق سقف أحد البيوت ومررتها فوق فمها، وهنا تغير كل شيء.

أصبح اللون الأزرق داكنًا واختفت الأقواس.

جلست فوق أحد الأحجار وانتظرت قطارًا يعود بها إلى مدينة أراد.

اتبعت "فلورنتين" نصيحة "ماريانا". بدأت في شهر مارس تصعد وتهبط السلالم كالممسوسة، تضع يدًا فوق درابزين السلم ويدًا أخرى فوق بطنها. حاولت الممرضات أن يعدن بها إلى سريرها، لكن "فلورنتين" قاومت، تهبط إلى الطابق الأسفل، ثم تصعد، ثم تهبط ثم تصعد. وفي وقت ما عرفت إن هذا يكفي. فذهبت إلى غرفة الولادة ورقدت فوق السرير وقالت إنها ستلد الآن. استغرقت الولادة أقل من الساعتين. ولم يأت الطبيب إلا عندما ظهر رأس الطفل.

انتظر "هانيس" أمام المستشفى. فالزيارات كانت ممنوعة، حتى عند الولادة، حتى الزوج لم يكن مسموحًا له بالزيارة. وبالرغم من بشائر الربيع الأولى، إلا إن ذلك اليوم كان باردًا، وكان الثلج لا زال يغطي بعض المواضع. كان الشتاء متشبثًا بالبقاء، في طيش وعناد.

[iii] منطقة تقع بين رومانيا وصربيا.

لفوا الطفل في وشاح ووضعوه فوق صدر "فلورنتين". شعرت بدقات قلبه. صرخ صرخة صغيرة، ثم هدأ تمامًا، شعرت "فلورنتين" بالإنهاك والفخر وبفرح شملها كلها، وبجانب تلك المشاعر، ظهر شعور آخر جاد لم تتوقعه. إنه هذا الصبي الآن، هذا الصبي ولا طفل آخر.

تجمعت الممرضات أمام النافذة.

«ثمة رجل يقف فوق سقف إحدى السيارات.»

ابتسمت "فلورنتين".

«قلن له إنه صبي وإن لديه أذنين صغيرتين.»

كانت الثمار على أشجار الكمثرى لا زالت صلبة. أما ثمار السفرجل فكانت ناضجة.

شعرت "فلورنتين" إن عليها أن تأكل من كل ما وهبته الحديقة لها وإلا ستكون ناكرة للجميل، أو عليها أن تحوله إلى مربى أو تتركه ليجف فوق الأرض. حاولت في السنوات الأولى أن تنجز كل شيء وحدها (إلى أن صبغت ثمار التوت يديها وأحلامها باللون الأحمر)، ولكن الآن تساعدها الجارات. عندما يتوقفن عن العمل، كن يمسحن أيديهن في المريلة، باطن اليد أولًا ثم ظهر اليد، ويملن بنصف جسدهن العلوي إلى الأمام، كأنما ستمنحهن هذه الانحناءة البسيطة بضعة سنتيمترات ضرورية لإرسال رسالة ما، رسالة قد تضيع إذا لم ينحنين هكذا، سيخطفها الريح ويلقيها فوق قمم الأشجار. لابد وإن صمتها كان يبدو لهن كأنها تعتقد إنها أفضل منهن. كانت "فلورنتين" تشعر بعدم ارتياح لم ينته أبدًا تجاه الكلمات. كانت ضبابية التعبيرات تقلقها وكذلك غموضها. فالكلمات كانت عاجزة عن التطابق مع حقيقة التجربة مهما اجتهدت "فلورنيتن". كانت تحب الانغماس في أفكارها وهي تقطف الكشمش والتوت والتفاح، وهي تجمع العنب – كانت تحب الاستماع إلى ما تقوله الكلمات لبعضها بعضًا وإلى الذكريات التي تستدعيها الكلمات. شعرت إن الكلمات انتقلت إلى مكان غير محدد، حيث الفكر والشعور متداخلان.

إنها هي المسؤولة بالتأكيد، مسؤولة إن "صامويل" لم ينطق بأي كلمة حتى عندما بلغ عمره عامين ونصف العام. سكتت "فلورنتين" عندما كان يكبر داخل بطنها، وسكتت عندما كانت تجر عربة الأطفال أمامها عبر الحقل لتتنزه على جانب النهر. كانا يصنعان المراكب ليتركاها فوق برك المياه، أو يقضيان الصيف فوق أرجوحة، أو يختبئان بين الأشجار – ألعابهما: ألعاب الصمت. وعندما يعجب "صامويل" بشيء، كان يشير إليه؛ كان واضحًا تمامًا في التعبير عما لا يحبه، يتحدث بالضحكات وبعينيه، لكنه لم ينبس بحرف واحد، لا شيء، لا شيء شبيه بكلمات ماما وبابا أو بأي شيء يقوله الأطفال عادة عندما يبدأون الكلام.

نصحها الناس: «لابد أن تريه كيف يفعل ذلك».

كانوا ينحنون فوق الصبي ويشكلون كلمات متفرقة، بوضوح أكثر من اللازم، ويشيرون إلى الأشياء.

يقولون: «كرة» ويكورون أفواههم.

يقولون: «ماما»، ويشيرون إلى "فلورنتين" التي كانت تتجمد تحت وطأة صوت المقطع المزدوج. كان "صامويل" ينظر إلى الأفواه، إلى الكريات، إلى أمه، إلى أبيه، ويظل صامتًا.

شعر "هانيس" بالقلق.

وكانت "فلورنتين" قادرة على الانتظار.

سكتت وهي في صحبة الجارات الثرثارات، ركزت على صوت حفيف الخطوات بين الأشجار، صوت نقار الخشب، صوت السفرجل وهو يسقط في سلال الخيزران، والكمثرى وهي تسقط في الصحون الكبيرة، والخوخ وهو يسقط في الأوعية الصيني. لوّنت الشمس الغاربة السماء والأسقف القرميد فوق البيوت باللون الأحمر. امتد الظل فوق الحديقة. سرى تيار لطيف بارد فوق رقبتها، وبين الحين والآخر كانت تلتقط بعض الكلمات ولا تسمع بعضها الآخر.

وفي وقت ما مدت إحدى السيدات يديها إليها.

تأملت "فلورنتين" يدي المرأة ثم يديها هي.

«أنت الوحيدة التي لها يدان حمراوان.»

وفي العصر جاء "هانيس" بصحبة رجلين ودخلوا المطبخ. لم تتفاجأ "فلورنتين" كثيرًا، فقد كان من المعتاد أن يطلب المسافرون المبيت في بيت القس. تأملت الرجلين. لا يمكن أن يكون عمرهما أكبر من العشرين، يرتديان بنطالات وأحذية مهترئة تؤكد أنهما كانا يرتحلان سيرًا على الأقدام. أنزل أحدهما حقيبة ظهره ومد لها يده ليصافحها.

«أنا "بينيديكت"، ناديني "بينه"»

«فلورنتين – بدون اختصار.»

سألها: «هل تسمحين لي بأن أساعدك؟»، غسل يديه وبدأ يقشر البطاطس بمهارة غير متوقعة.

عرفت "فلورنتين" إن الرجلين يعملان بالتدريس ومازالا في بداية حياتهما العملية. جاءا من ألمانيا الديمقراطية ويريدان التوجه إلى البحر الأسود عن طريق الأوتوستوب. "بينه" له شعر أسود وبشرة فاتحة وغمازات وجدتها "فلورنتين" لطيفة وجريئة في الوقت نفسه. كانت له يدان جميلتان بأصابع طويلة رفيعة أخذ يقطع بها البصل والثوم ويفرم جذور البقدونس والكرفس في خبرة بينما كان يسأل ويحكي.